الشاهين

حكاية الكاسر الذي قيدته المخاوف



علي إبراهيم خليل الخفاجي

إلى القارئ

ليست هذه الحكاية عن طائرٍ لا يعرف الطيران، بل عن طائرٍ عرفه يوماً ثم صار يخاف أن يجرّبه من جديد. وبين المعرفة والخوف مسافةٌ لا تُقاس بالأمتار؛ تُقاس بما نسمح له أن يقوله لنا ماضينا.

ستجد في صفحاتها غابةً وجبلاً ومرآة، لكنك قد ترى بينها طريقاً تعرفه: طريق العودة إلى نفسك من غير قسوة، ومن غير ادعاء أن الخوف يختفي بقرارٍ واحد.

هذه حكاية أدبية وتأملية، وليست بديلاً عن المساندة المتخصصة حين يحتاجها الإنسان. خذ منها ما ينفعك، واترك ما لا يشبه تجربتك.

ولعلّ أجمل ما تتيحه الحكاية أن تجلس إلى جوار بطلها، لا أمامه كقاضٍ ينتظر نتيجة الرحلة. أن تسمع حفيف جناحيه حين يتردد، وأن تلاحظ ما يراه للمرة الأولى بعدما طال انشغاله بالأرض. لن تكون كل منعطفاته شبيهةً بمنعطفاتك، لكن بين الأغصان فسحةً لأسئلتك أيضاً. اقرأ على مهل، كما يتتبع المرء ضوءاً يتحرك فوق الماء؛ وإن أثقلت عليك صفحة، يمكنك أن تغلق الكتاب قليلاً، وتعود حين تشاء. فهذه الصفحات لا تستعجل وصولك، ولا تطلب منك أن تبرهن على شيء، وليس في آخرها موعدٌ ينبغي أن تسبقه.

إهداء

ليس كلُّ بطءٍ عجزاً؛ أحياناً يكون القلبُ يتعلّم الأمان.

إلى كل من أخفى جناحيه كي لا يسمع ضحكةً عابرة.

إلى من ظن أن تعثّره الأول صار اسماً له، ثم عاد، ولو بخطوة صغيرة، يسأل قلبه عمّا يستطيع فعله اليوم.

وإلى الذين يمدّون أيديهم للآخرين من غير أن ينتزعوا منهم حق اختيار الطريق.

وإلى من بقي قريباً حين لم يجد صاحبُه كلاماً يشرح به تردده؛ فوضع له مكاناً في الظل، وانتظر من غير أسئلةٍ ثقيلة. إلى من فرح بمحاولةٍ لم يشهدها سواه، ولم يحوّلها إلى وعدٍ بمحاولاتٍ أكبر. وإلى الذين يعرفون كيف يصحبون غيرهم بعض الطريق، ثم يخففون خطاهم ليتركوا له مساحته. لعلّ في هذا الإهداء مقعداً صغيراً لكم جميعاً، تحت شجرةٍ لا تسأل القادم عن سرعة وصوله؛ يكفي أن يجد عليها موضعاً يستريح فيه، وأن يعرف أن الصحبة لا تضيق بصمته ولا بتأخره عن الآخرين.

قبل أن تبدأ

في غابة السرو الكثيفة عاش شاهينٌ اسمه «شاهين». كان جناحاه عريضين، وريشه يلمع بلون الليل حين تلمسه الشمس. وكانت الطيور الصغيرة تفسح له الهواء إذا مرّ، لا خوفاً منه، بل إعجاباً بقوته.

لكن شاهين لم يكن ينظر إلى جناحيه. كان ينظر إلى الأرض. منذ سقوطٍ قديمٍ عند حافة وادٍ، التصقت في داخله عبارة واحدة: «لن تستطيع». لم يقلها له أحد بصوتٍ واضح؛ كررها الخوف حتى بدت كأنها حقيقة.

في ليلةٍ ساكنة، رأى قمّةً تلامس الغيم، وسمع أن حكيماً يسكن هناك يعرف جواب الأسئلة الصعبة. لم يعرف شاهين أن السؤال الذي يحمله سيقوده إلى مكانٍ أقرب بكثير مما تخيّل.

ظلّ شاهين يتأمل القمة حتى غابت أطرافها في العتمة، ثم نظر إلى الطريق الممتد بين جذور السرو. لم يكن يعرف كم يحتاج الوصول إليها، ولا إن كانت الحكايات عن الحكيم دقيقة؛ لكنه أراد أن يسمع جواباً لا يصنعه وحده في عشه. قبل أن ينام، اختار بعينيه أول جزءٍ من المسار، حيث الأرض مستوية والماء قريب. كانت تلك مسافةً يستطيع أن يبدأ بها، ثم يتوقف ليرى ما بعدها. وفوقه تحرك غصنٌ برفق، فنفض عن ريشه قطرات الندى، كأن الليل يهيئ للصباح مكاناً صغيراً.

خريطة الحكاية

الفصل الأول — أثر السقوط: الجرح الذي صار حكماً.

الفصل الثاني — طريق الأقدام: قرارٌ صغير في غابة كبيرة.

الفصل الثالث — طائر الصدى: حين يصبح كلام الآخرين قفصاً.

الفصل الرابع — السلحفاة والساعة: ما الذي نأخذه من الماضي؟

الفصل الخامس — ثعلب المفترق: التردد الذي يتخفّى في هيئة حكمة.

الفصل السادس — المطر والرفقة: الشجاعة لا تعني أن نمشي وحدنا.

الفصل السابع — قمة المرآة: رؤية النفس بلا تزويق ولا إهانة.

الفصل الثامن — جناحان في الضوء: العودة إلى الحياة بخطوة واعية.

تسير الحكاية من أثر تجربةٍ قديمة إلى خياراتٍ جديدة: أن نميّز بين الذكرى والحاضر، ونصغي إلى النصيحة من غير أن نسمح للسخرية أن تعرّفنا، ونطلب المساندة حين نحتاجها. وفي نهاية كل فصل وقفةٌ قصيرة تساعد القارئ على وصل الرمز بتجربته، من دون إلزامه بإجابةٍ واحدة أو طريقٍ واحد.

الفصل الأول | أثر السقوط

السقوطُ حادثة؛ أمّا الحكمُ الذي نصدره على أنفسنا بعده، فقد يطول أكثر من الحادثة.

كان الصباح يتسلل إلى الغابة مثل خيطٍ ذهبي بين جذوع السرو. وقفت الطيور على الأغصان، تتبادل النداءات، فيما ظل شاهين عند جذعٍ عتيق، مطأطئ الرأس. لم يكن مريضاً، ولم يكن جناحاه مكسورين. ومع ذلك كان يضمّهما إلى جانبيه كمن يخفي سرّاً.

في كل مرةٍ هبّت الريح من جهة الوادي، ارتجفت ريشةٌ عند كتفه. هناك، قبل مواسم كثيرة، اندفع وراء فراشةٍ بيضاء، فاختلّ توازنه وسقط على منحدرٍ صخري. خرج يومها بخدشٍ وجناحين مرهقين، لكن الذاكرة عادت إليه أكبر من السقوط: عادت بصوتٍ حادّ وصورةٍ لا تهدأ.

وكانت الغابة، على اتساعها، تمضي في صباحها المعتاد؛ ورقةٌ تسقط، وجدولٌ يلمع، وعصفورٌ يتعلم أول نداء. وحده شاهين كان يظن أن لحظته القديمة أوقفت الزمن عند حافة الوادي.

اقترب عصفورٌ من الجذع، وفي منقاره عودٌ دقيق لبناء عش. سقط العود عند قدمَي شاهين، فدفعه إليه برفق، وتابع بعينيه صعوده بين الأغصان. لم يكن الصعود مستقيماً؛ توقف العصفور مرتين، واستند إلى غصنٍ منخفض قبل أن يبلغ عشه. رأى شاهين تفاصيل كان يفوته أن يراها حين يختصر الطيران في لحظة الارتفاع وحدها: مواضع للراحة، وأغصان تحمل الوزن، وهواءٌ يُنتظر حتى يهدأ. بقي في مكانه، لكن عينيه ارتفعتا هذه المرة قليلاً عن الأرض، واستقرتا على الغصن القريب، لا على الحافة البعيدة التي كانت تشغله.

صوتٌ من الأمس

منذ ذلك اليوم لم يعد شاهين يجرّب الارتفاع. كان يراقب الطيور وهي تعبر فوق الأشجار، ثم يشيح بنظره قبل أن يراه أحد. وإذا سأله عصفورٌ صغير: «لماذا لا تطير؟» أجاب: «أفضل السير. الطيران متعب». وكان يعرف في سرّه أن التعب ليس ما يمنعه.

ذات مساء، عثر على ريشةٍ قديمة عالقة بين الصخور. لمسها بمنقاره، فعادت إليه رائحة الهواء البارد وصوت الحصى يتدحرج. أطبق عينيه لحظةً، ثم سحب جناحه إلى صدره.

قال لنفسه: «أنا لا أخاف». لكن قدميه كانتا قد ابتعدتا عن حافة الوادي قبل أن ينتهي من العبارة. لم تكن المشكلة أنه خائف؛ المشكلة أنه صار يصدّق أن الخوف يعرف مستقبله.

لم يعرف شاهين أن الجسد قد يتذكر قبل أن يجد اللسان الكلمات. لذلك لم يوبّخ ارتجافه؛ اكتفى بأن لاحظه، وترك لنفسه فسحةً بين الذكرى والقرار.

فتح عينيه على حجرٍ دافئ بقيت فيه حرارة النهار، وعلى نبتةٍ صغيرة خرجت من شقٍّ عند قدميه. كان الحصى ساكناً الآن، ولم تكن الريح التي سمعها في ذاكرته تهبّ حوله. ترك الريشة حيث وجدها، ومشى إلى فسحةٍ أبعد عن الحافة، ثم جلس حتى انتظمت أنفاسه. وحين مرّ عصفورٌ في طريقه إلى الغابة، سأله شاهين إن كان يعود معه. لم يشرح كل ما حدث؛ قال فقط: «أحب أن نمشي معاً هذا المساء». واتسع الطريق لصوت خطوتين، فيما بقي الوادي خلفهما من غير أن يلتفت إليه.

ما وراء العبارة

في الغابة شجرةٌ مجوّفة يسكنها بومٌ مسن. ذهب إليه شاهين لا لطلب حل، بل ليتأكد أن ما يشعر به طبيعي. سمعه البوم حتى انتهى، ولم يقاطعه بنصيحةٍ جاهزة.

قال البوم: «حين تتكرر ذكرى الألم، قد يحاول العقل حمايتك بتوقّع الخطر قبل وقوعه. هذا لا يجعل التوقّع نبوءة، ولا يجعل خوفك عيباً. لكنه يعني أن عليك أن تميّز بين ما حدث، وما تتوقع حدوثه الآن».

لم يشفِ الكلام جناحي شاهين، ولم يمحُ الوادي من ذاكرته. لكنه فتح نافذةً صغيرة: ربما كانت الذكرى صادقةً بشأن الأمس، لا بشأن كل يومٍ يأتي بعده. عاد إلى عشه وهو يحمل سؤالاً جديداً بدلاً من حكمٍ نهائي.

خرج من عند البوم من غير وصفةٍ سحرية. كان يحمل فهماً أنفع: يستطيع أن يعترف بما يؤلمه، وفي الوقت نفسه يختبر إن كان الحاضر يشبه الأمس حقاً.

عند باب عشه، أصغى شاهين إلى وقع السؤال الجديد في نفسه: ما الذي أعرفه عن هذا الغصن، لا عن صخور الوادي؟ نظر إلى خشونته وإلى موضع اتصاله بالجذع، ثم مدّ جناحاً قليلاً وهو ثابت القدمين. لم يكن يحاول الطيران؛ أراد أن يلاحظ حركة الريش في هواءٍ خفيف، قريباً من مكانٍ يألفه. وحين اشتدت هبّةٌ عابرة، ضمّ جناحه وعاد إلى الداخل. قرر أن يسأل البوم في لقائه المقبل عن اختيار موضعٍ آمن للمحاولة، وعن رفيقٍ يبقى قريباً إذا احتاج إلى التوقف أو إلى مساعدة.

وقفة الفصل

حين يخطئ الإنسان، قد يختصر نفسه في لحظة واحدة: «فشلت، إذن أنا فاشل»؛ «تعثرت، إذن لن أقدر». لكن الفعل لا يساوي الهوية، والتجربة الواحدة لا تكتب وحدها بقية الحكاية.

جرّب أن تفصل بين ثلاثة أشياء: ما وقع فعلاً، وما تخشاه أن يقع، وما يمكنك فعله بأمان في هذه اللحظة. لا تحتاج إلى إنكار الخوف كي تبدأ؛ يكفي أن تسمّيه بدقة.

سؤال للقارئ: ما العبارة التي ورثتها من تجربةٍ قديمة، وهل تصف حاضرك فعلاً؟ اكتبها كما تسمعها، ثم أضف: «هذه فكرةٌ تشكّلت بعد حدث، وليست حكماً نهائياً على مستقبلي».

في المسافة بين الحادثة والاسم الذي نطلقه على أنفسنا، تتسع نافذة صغيرة. يمكن أن يدخل منها تفصيل أغفلناه: أرض كانت زلقة، معرفة لم تكن متاحة، أو يد لم نطلبها في وقتها. ليست هذه التفاصيل ستاراً نخفي وراءه ما وقع، بل ضوءاً يجعل الصورة أقل قسوة وأكثر وضوحاً. وحين نرى المشهد كاملاً، يصبح السؤال مختلفاً: أي جزء يحتاج إلى انتباه، وأي جزء يحتاج إلى مساندة؟ عندها تبقى الذكرى في موضعها من الحكاية، ويظل أمامنا متسع لصفحة لم تُكتب بعد، بخط لا يشبه تماماً خط الأمس.

الفصل الثاني | طريق الأقدام

الشجاعة ليست أن تعرف الطريق كله؛ قد تكون أن تختار اتجاهاً صالحاً للخطوة التالية.

في الليلة التالية، اتخذ شاهين قراراً لم يسمّه شجاعاً. سيذهب إلى قمة الجبل المقدس ماشياً، ويسأل الحكيم هناك كيف يتخلص من خوفه. جهّز جراباً صغيراً، وضع فيه حبات توتٍ يابسة، وربط حول كتفه وشاحاً من ريشٍ سقط طبيعياً.

عند الفجر خرج من الغابة. لم يعلن رحيله لأحد؛ لم يشأ أن يسمع نصائحَ متناقضة. كانت الأرض رطبة، وأثر خطواته يختفي خلفه سريعاً. سار ببطء، لكنه كان يسير إلى مكانٍ اختاره، لا بعيداً عن مكانٍ يطارده.

لم يكن الطريق امتحاناً يراقبه فيه أحد. كان مساحةً يختبر فيها اختياره، ويعدّل خطته حين تتبدل الأرض أو يتعب الجسد.

كان وقع قدميه على التراب أخفت من حفيف الوشاح حول كتفه. بين حين وآخر، توقف لينفض عن الجراب قطرة علقت به، ثم رفع بصره إلى الضوء المتسلل بين الأغصان. لم يعرف كم ستطول الرحلة، ولذلك أخذ يلاحظ مواضع يمكن الرجوع إليها إن تبدل الجو. وحين سمع حركة بعيدة بين الشجر، خطر له أن يسأل أول عابر عن حال الطريق، وأن يخبره بوجهته. بدا له الآن أن الخروج من غير إعلان لا يلزمه أن يكمل الطريق من غير رفقة أو دليل.

غابةٌ بلا خريطة

كلما ابتعد عن عشه، ازدادت الأشجار تشابكاً. تفرعت المسارات، وتساوت أمامه العلامات. وقف عند حجرٍ موسوم بخطوطٍ قديمة، وراح ينظر يميناً ويساراً. لم يكن يحمل خريطة، ولم يجرؤ على سؤال العابرين؛ خشي أن يبدو جاهلاً.

ثم تذكر جملة البوم: ميّز بين ما حدث وما تتوقعه. ما حدث أنه لا يعرف الطريق. أما ما تخيله فهو أن السؤال سيجعله موضع سخرية. أخذ نفساً بطيئاً، وانتظر حتى مرّت غزالةٌ تحمل الماء في جرابها.

سألها عن المسار إلى الجبل. أشارت بقرنها إلى دربٍ ضيق، وقالت إن الدرب قد يبتل بعد المطر. لم تضحك، ولم تمنحه خريطةً كاملة. أعطته معلومةً تكفي للآن، وهذا كان كافياً.

وحين أجابته الغزالة ببساطة، خفّ شيءٌ في صدره. لم يكن عليه أن يعرف كل شيء وحده؛ كانت المعرفة أحياناً تبدأ بسؤالٍ واضح لشخصٍ مناسب.

قبل أن يمضي، أعاد شاهين وصف المنعطف للغزالة، ليتأكد أنه فهم إشارتها. نبهته إلى جذور بارزة عند أوله، فشكرها وانتظر حتى اتضح له موضع الدرب بين السرخس. كان ضيقاً حقاً، وعلى حافته طين داكن احتفظ برائحة المطر. اختبر الأرض بقدمه قبل أن ينقل ثقله، ومشى حيث بدت الحجارة أكثر ثباتاً. لم تتحول الغابة إلى مكان مألوف دفعة واحدة؛ بقيت أصواتها كثيرة وظلالها متشابهة، لكن صار في نظره تفصيل يرجع إليه حين يحتار: منعطف وصفته له غزالة، وجذور تستدعي التمهل، لا التخمين.

خطوةٌ قابلة للعيش

عند الظهيرة، آلمت قدميه. جلس تحت شجرة زيتون برية، وأخرج التوت. كان الجبل بعيداً كما كان في الصباح، لكنه لم يعد صورةً مستحيلة؛ صار مجموعة مقاطع: عبور هذا السهل، ثم بلوغ النبع، ثم البحث عن مأوى.

خطر له أن يعود. لم يسخر من نفسه لهذه الفكرة؛ فالعودة احتمالٌ مشروع إذا صار الطريق خطراً. لكنه لم يكن في خطر الآن، وكان التعب يطلب راحةً لا استسلاماً. شرب الماء، وترك جسده يستعيد قوته.

حين نهض، لم يقل: «سأصل مهما حدث». قال: «سأمشي حتى الموضع التالي، ثم أقيّم الطريق». كانت العبارة أقل بريقاً، لكنها أكثر أماناً وصدقاً.

كان لكل محطةٍ علامةٌ صغيرة: ظلّ شجرة، صوت ماء، أو موضعٌ مستوٍ للراحة. وحين صارت العلامات قريبة، لم يعد البعيد يبتلع نظره كله.

ترك تحت الزيتونة بعض فتات التوت، ثم أحكم رباط جرابه حتى لا يحتك بموضع الألم. في السهل، اختار أرضاً لينة لا تغوص فيها قدماه، وأبطأ كلما أحس بوخز يعود. كان يصغي إلى صوت النبع، لكنه لم يستعجل الوصول إليه؛ رأى حجراً عريضاً يصلح لجلوس قصير، فجعله محطة بينه وبين الماء. هناك مد ساقيه قليلاً، وراقب نملة تحمل قشرة أكبر منها وتغير مسارها عند الحصى. وحين خف الألم، نهض على مهل، وقد عرف شيئاً عملياً عن طريقه: مواضع الراحة تستحق أن يلاحظها مثل مواضع العبور.

وقفة الفصل

أحياناً نؤجل البداية لأننا نطلب من أنفسنا أن نضمن النهاية. لكن معظم القرارات اليومية لا تمنحنا يقيناً كاملاً؛ تمنحنا معطياتٍ كافية لخطوةٍ واحدة.

اختر أمراً صغيراً نافعاً تؤجله. اجعله محدداً، قابلاً للقياس، وآمناً: مكالمة استشارة، قراءة صفحتين، سؤال شخصٍ موثوق، أو ترتيب موعد. حدّد متى ستفعل الخطوة، وما الدعم الذي تحتاجه.

لا تعد نفسك بنتيجةٍ لا تملكها. عاهد نفسك على فعلٍ تملكه، ثم راجع ما تعلمته. وإذا اكتشفت أن الخطوة غير مناسبة، فالتعديل ليس خيانةً لهدفك؛ إنه استعمالٌ للحكمة.

قد تبدو الخطوة الصغيرة، حين تُكتب على ورقة، أقل حجماً من القلق الذي أحاط بها طويلاً. ومع ذلك، تمنحها الكتابة حواف واضحة: وقت يبدأ، ووقت ينتهي، ومساحة لترك ملاحظة بعدها. ربما لا تجيب المكالمة عن كل الأسئلة، لكنها تكشف السؤال الذي يستحق أن يُطرح لاحقاً. وربما تدل الصفحتان على أن الكتاب ليس ما نحتاجه الآن. في هذه التفاصيل الهادئة تتكون معرفة لا يمنحها الانتظار وحده؛ معرفة بما يلائم يومنا، وبمن يمكن أن يرافقنا، وبالقدر الذي نستطيع حمله من غير أن نهمل حاجتنا إلى الراحة.

الفصل الثالث | طائر الصدى

كلامُ الناس قد يؤلم، لكنه لا يملك وحده حقَّ تعريفك.

في ممرٍ ضيق بين صخرتين، سمع شاهين همساً يهب من فوقه: «من يظن نفسه؟»، ثم ضحكةً تتدحرج مع الريح. التفت فرأى طائراً أسود يقف على غصنٍ عالٍ. كان ذلك طائر الصدى؛ لا يخترع الكلمات، لكنه يعيدها حتى تكبر.

قال الصدى: «ستصل إلى القمة فتسقط أمام الجميع. كان عليك أن تبقى في عشّك». شعر شاهين بحرارةٍ في صدره. لم يعرف إن كان الطائر يسخر حقاً أم أن ذاكرته هي التي منحت الريح صوته.

انكمش جناحاه، وعاد الجبل أبعد مما كان. لكنه تذكر أن بعض الأصوات آتية من الخارج، وبعضها يلبس صوت الخارج كي يُصدَّق.

وتحت الضجيج، كان شاهين يسمع أمراً آخر: رغبته الصادقة في أن يعيش أوسع من خوفه، من غير أن يجعل حياته استعراضاً أمام الآخرين.

أدار شاهين رأسه نحو الصخرتين، فرأى أن الممر يضيق عند بقعة ظل يحجبها الغصن. وضع جرابه على نتوء آمن، وترك لقدميه وقتاً تستقران فيه. كان الصدى يعيد عبارته، لكن شاهين أخذ ينظر إلى ما أمامه: شق في الحجر، حصى متناثر، وضوء عند آخر الممر. احتاج إلى معرفة أين يضع قدمه أكثر مما احتاج إلى جواب ينتصر به في حديث. بقيت حرارة الكلمات في صدره، ولم يطالبها أن تزول فوراً. رفع الجراب حين استعد، واختار أن يعبر ببطء، بعيداً عن الحافة، لا ليثبت للطائر شيئاً.

الفرق بين النصيحة والجرح

هبط شاهين قرب الصدى وقال: «هل لديك تحذيرٌ محدد يساعدني؟» لم يتوقع سؤالاً كهذا. أجاب الصدى: «الجميع يعرف أنك لا تطير».

قال شاهين: «هذا وصفٌ لما رأيت، لا دليلٌ على ما أستطيع تعلّمه. إن كنت تعرف خطراً في الدرب فأخبرني به. أما السخرية فلا تعطيني معلومة».

سكت الطائر قليلاً، ثم اعترف أن بعض العابرين كانوا يضحكون حين يخفق بجناحه، فاعتاد أن يسبقهم إلى الضحك. فهم شاهين أن الأذى قد ينتقل من فمٍ إلى فم، وأن فهم مصدره لا يلزمه بقبوله.

تابع طريقه من غير أن يطلب من الصدى أن يوافق عليه. لم يكن بحاجة إلى كسب كل جمهورٍ يقف على غصن.

أدرك أن حسن النية لا يجعل كل كلمةٍ نافعة، وأن وضع حدٍّ مهذب لا يحوّله إلى خصم. أحياناً يكون أوضح ردٍّ على القسوة هو رفض المشاركة فيها.

عند منعطف الدرب، ناداه عصفور من بين الأوراق: «تمهّل، فالغصن المائل فوقك متشقق». رفع شاهين رأسه، فرأى خطاً داكناً في الخشب، وانتقل إلى الجانب الآخر. لم تكن النبرة لطيفة تماماً، لكن الكلام أراه شيئاً يستطيع التحقق منه. وحين مرّ بأمان، شكر العصفور على التنبيه. ظل وقع السخرية يؤلمه، غير أن ذلك لم يمنعه من سماع تحذير مختلف. كانت بين الكلمتين مسافة تشبه المسافة بين شوكة تخدش جناحه وعلامة تدله على ممر أقل وعورة؛ ولم يعد يريد أن يخلط إحداهما بالأخرى لمجرد أنهما جاءتا من الخارج.

الجمهور الصغير

في المساء، راجع شاهين ما قيل له. لم يكن قادراً على منع كل كلمة، لكنه استطاع اختيار من يستمع إليه. تذكر الغزالة التي دلتْه، والبوم الذي أصغى إليه، وعصفوراً صغيراً كان يرفرف قريباً منه بلا خوف.

قال لنفسه: «سأبحث عن رأيٍ أمين من شخصٍ يحترمني، لا عن تصفيقٍ من الجميع». ولم يحوّل ذلك إلى عزلة؛ فالمساندة لا تعني أن يوافقه كل أحد، كما أن استقلاله لا يعني أن يرفض كل نصيحة.

حين أصبح الطريق وعراً، توقف ليسأل سلحفاةً عن موضعٍ آمن لعبور الجدول. لم يكن السؤال انتصاراً على الناس ولا هزيمةً أمامهم. كان تعاوناً بسيطاً بين مسافرين.

لم يطلب شاهين من أصدقائه أن يصفقوا لكل قرار. طلب منهم أن يكونوا صادقين ورحيمين، ووعد أن يصغي إلى ما يساعده على رؤية الطريق بوضوح.

قرب الجدول، جرّب شاهين أن يضع قدمه على حجر أملس، فقال العصفور الصغير: «أظنه زلقاً؛ انظر كيف يلمع الماء فوقه». تراجع شاهين إلى التراب، بينما أشارت السلحفاة إلى حجر أعرض، تحيط به أعشاب قصيرة. لم يشعر أن مكانه بين هؤلاء قد ضاق لأنهم خالفوا اختياره؛ بقي العصفور قريباً، وبقي صوت السلحفاة هادئاً. وحين عبر، لم يرتفع تصفيق، بل سمع سؤالاً بسيطاً: «هل ثبتت قدمك؟» كان في ذلك السؤال اهتمام بما حدث فعلاً، لا بالصورة التي ينبغي أن يظهر عليها أمامهم، وهذا ما جعله يجيب بصدق.

وقفة الفصل

قد يكون طلب القبول طبيعياً، لكن تحويله إلى شرطٍ لكل خطوة يجعل حياتنا رهينةً لتقلب الآخرين. وفي الجهة الأخرى، لا تعني الثقة بالنفس أن نرفض النقد كله.

حين تسمع رأياً، اسأل: هل هو محدد؟ هل صاحبه يريد مصلحتي؟ هل يصف سلوكاً يمكن تغييره أم يهاجم قيمتي كإنسان؟ خذ النافع، وضع حدوداً لما يجرح أو يهدد.

اكتب اسم شخصٍ واحد تستطيع محاورته بأمان، وجملةً واحدة تقولها حين يتحول الحديث إلى تحقير: «أسمع ملاحظتك المحددة، لكنني لن أكمل الحديث إذا صار إهانة». سلامتك وكرامتك ليستا ثمناً ضرورياً للتطور.

في وقفة كهذه، قد يعود إلى الذاكرة حديث لم نجد له جواباً في حينه، وتبقى منه كلمة أشد حضوراً من سائر الكلمات. ليس ضرورياً أن نحسم كل شيء قبل أن نغادر المقعد؛ يمكن أن يبقى بعض الأسئلة مفتوحاً حتى يتاح حديث أهدأ، أو يحضر شخص نثق بإنصافه. وبين الرد الفوري والصمت الدائم مساحة تتسع لعبارة قصيرة: «أحتاج وقتاً لأفكر فيما قلت». هناك يصبح التمهل جزءاً من الحوار، لا انقطاعاً عنه، ويظل الباب موارباً لما يستحق الإصغاء، من غير أن نتركه مفتوحاً لكل عابر.

الفصل الرابع | السلحفاة والساعة

لا يلزم أن نمحو الأمس كي نمنعَه من كتابة كل الغد.

قرب النبع، التقى شاهين سلحفاةً تسير وفي قوقعتها ساعةٌ نحاسية لا عقارب لها. كان يظن أن بطأها علامةُ عجز، إلى أن رآها تختار موضع كل قدمٍ بعناية، وتتوقف حين تحتاج إلى الماء.

قال لها إن السقوط القديم يرافقه أينما ذهب. لم تجبه فوراً. رفعت رأسها نحو الغابة، حيث كانت ظلال الأشجار تميل مع الغروب، ثم قالت: «الذاكرة تحفظ الطريق الذي آلمك. لكنها ليست مطالبةً بقيادتك إلى الأبد».

لم تقصد أن ينسى شاهين ما حدث. قصدت أن يحمل الخبرة من دون أن يحوّلها إلى قيد.

كان في مشية السلحفاة إيقاعٌ لا يستعجل الاعتذار عن بطئه. بدت له كأنها تقول إن القيمة لا تُقاس بسرعة الوصول، بل بما نتعلمه ونحن نعبر.

تأمل شاهين الساعة المثبتة في القوقعة؛ كان النحاس قد احتفظ بدفء النهار، وعلى حافته خدوش صغيرة تلتقط الضوء. سألها: «كيف تعرفين الوقت من دون عقارب؟» قالت: «هذه ساعة قديمة أحملها، أما موعد الراحة فأعرفه من الطريق ومن تعبي». ثم ابتعدت قليلاً عن حافة النبع لتفسح له موضعاً جافاً. جلس بجوارها، وأصغى إلى قطرة تتكرر بين حجرين. لم تختف صورة سقوطه، لكن حولها اتسع المشهد: ماء قريب، وأرض ثابتة، ورفيقة لا تستعجله كي ينهي حكايته. وللمرة الأولى منذ بدأ الحديث، لاحظ رائحة الطين المبتل تحت قدميه.

حقيبةٌ أثقل من الريش

جلسا على ضفة الماء. وصف شاهين سقوطه، والصوت الذي صاح في رأسه، والسنوات التي صار فيها يراقب السماء من الأسفل. استمعَت السلحفاة، ثم سألت: «ما الذي حماك منه الامتناع؟ وما الذي كلّفك إياه؟»

قال إن الامتناع أبعده عن حافةٍ يخشاها، لكنه أبعده أيضاً عن الريح والاتساع. لم يندم على أنه حاول حماية نفسه؛ أدرك فقط أن وسيلة الحماية القديمة لم تعد تكفي لكل موقف.

أخرج من جرابه حصاةً أخذها يوم سقوطه. احتفظ بها كأنها برهانٌ على أنه لا ينسى. وضعها قرب النبع، لا كطقسٍ سحري، بل كي يخفف حمله. بقيت الحصاة حيث هي، وبقيت الذكرى معه، لكنهما لم تعودا شيئاً واحداً.

لم يلقِ الحصاة في الماء، ولم يطلب منها أن تختفي. تركها على الضفة كما تُترك علامةٌ على أن شيئاً حدث، وأن الحياة بعده ما زالت ممكنة.

حين نهض شاهين، مال الجراب إلى جانبه بخفة لم يألفها، فمد جناحه ليعدّل موضعه. التفت إلى الحصاة مرة أخرى؛ كانت قطرة من النبع قد بللت طرفها، فظهر لونها أغمق مما تذكر. لم يشعر بفرح كامل، ولم ينتظر منه قلبه ذلك. قالت السلحفاة: «يمكننا أن نبقى قليلاً إن أردت». فجلس، وترك الماء يجري أمامهما حتى هدأت حركة جناحه. وحين قام ثانية، لم يكن مضطراً إلى إعلان بداية كبيرة؛ اكتفى بأن يحمل جرابه كما صار، وأن يختار الخطوة التالية على أرض يراها جيداً، والسلحفاة إلى جواره.

الماضي معلّمٌ لا قاضٍ

قالت السلحفاة: «يمكن أن نسأل الماضي عمّا علّمنا، من غير أن نتركه يحاكم كل محاولةٍ جديدة». ثم أخبرته أنها سقطت مرةً عن صخرةٍ منخفضة، فتعلمت أن تتحقق من ثبات الأرض قبل أن تعبر. لم تتعلم أن كل الصخور فخاخ.

كان في كلامها ما يكفي ليعيد ترتيب ذاكرته. السقوط علّمه أن يلاحظ الريح، وأن يقدّر المسافة، وأن يطلب المساندة حين يلزم. لم يثبت السقوط أنه عاجز؛ أثبت أن محاولةً بعينها لم تنجح في ظروفها.

شكرها. قالت: «لا تشكرني لأنني أعطيتك جواباً؛ اختبره في حياتك». ومضت ببطئها الواثق، فيما ظل شاهين يتأمل أثرها الهادئ على التراب.

حفظ شاهين من حديثها ميزاناً بسيطاً: الخبرة تساعدني على اختيار حذرٍ مناسب، لكنها لا تُلزم مستقبلي بأن يكرر المشهد نفسه.

بعد أن ابتعدت السلحفاة، اقترب شاهين من صخرة منخفضة عند طرف الدرب. لم يصعدها فوراً؛ تفحّص سطحها، ولاحظ شقاً ضيقاً وحفنة رمل قد تنزلق تحت قدمه. اختار موضعاً آخر، ثم توقف حين هبّت ريح حركت أطراف ريشه. كان يستطيع تأجيل التجربة إلى وقت أهدأ، ولم ينقص ذلك من رغبته في التعلم. رسم بمخالبه خطاً صغيراً في التراب ليتذكر الموضع المناسب، ومضى نحو فسحة تحجب عنها الأشجار بعض الهواء. صار لديه سؤال عملي يحمله إلى محاولته المقبلة: أين تثبت قدمي قبل أن أفتح جناحي؟

وقفة الفصل

التصالح مع الماضي لا يعني تبرير ما آذانا، ولا إجبار النفس على النسيان أو المسامحة. قد يعني فقط تسمية ما وقع بصدق، واستخلاص ما يحميك الآن، ومنح الحاضر فرصةً عادلة.

جرّب عمودين على ورقة: «ما تعلمته» و«ما لم يعد عليّ حمله». اكتب في الأول مهارةً أو حذراً مفيداً؛ وفي الثاني حكماً قاسياً أو لومًا لا يساعدك اليوم. لا تتخلص من شيءٍ قبل أن تشعر بالأمان، ولا تفرض على نفسك مشاعرَ جاهزة.

إذا كانت الذكرى شديدة أو تعود بما يعطل حياتك، فطلب دعم مختص أو شخص موثوق خيارٌ محترم. لا يلزم أن تواجهها وحدك، ولا يدل ذلك على ضعف.

بعد الكتابة، قد تبقى في الورقة مساحةٌ بيضاء لا تعرف ماذا تضع فيها. دعها كما هي؛ ليست كل حكايةٍ مستعدةً لأن تُروى دفعةً واحدة. ربما يكفي اليوم أن تطوي الورقة وتضعها في درجٍ تختاره، ثم تفتح النافذة ليدخل هواء المساء. ثمة فرقٌ بين أن تترك شيئاً بلا اسم لأنك تنكره، وأن تؤجل تسميته حتى تجد الكلمات والرفقة المناسبة. وفي تلك المساحة الهادئة يستطيع الحاضر أن يظهر بتفاصيله الصغيرة: دفء كوبٍ بين اليدين، وصوتٌ مألوف، وموعدٌ لا يتعلق بما مضى، بل بما ينتظرك غداً.

الفصل الخامس | ثعلب المفترق

التفكيرُ يضيء الطريق، لكنه لا يمشيه نيابةً عنا.

وصل شاهين إلى سهلٍ تتقاطع فيه ثلاثة دروب. عند الوسط جلس ثعلبٌ أنيق، يرسم على التراب أسهماً كثيرة. قال: «هذا طريقٌ للذين لا يخافون، وهذا للذين يريدون النجاح، أما هذا فلا يسلكه إلا من يعرف كل شيء».

فكر شاهين: أي طريقٍ يضمن ألا يسقط؟ أي طريقٍ يضمن ألا يضحك أحد؟ وأي طريقٍ يوصله إلى جواب الحكيم من غير أن يندم؟ كلما اختار درباً، ظهرت له حجةٌ جديدة للانتظار.

كان الثعلب يبتسم. لم يكن شريراً؛ كان بارعاً في جعل التفكير بديلاً عن الحركة.

رأى أن الكمال الذي وعد به الثعلب بابٌ لا يُفتح؛ كل جوابٍ كامل يحتاج جواباً آخر. أما القرار المعقول فيقبل النقص، ويظل مستعداً للمراجعة.

هبّت نسمةٌ فمسحت أطراف بعض الأسهم، وبقيت الدروب في أماكنها. رفع شاهين عينيه عن التراب، وأخذ يتأمل ما يمكن رؤيته فعلاً: انحدار الأرض، وظل الأشجار، وأثر الماء البعيد. سأل الثعلب عن مواضع الاستراحة، فلم يجد في إجابته الوضوح الذي وجده في وصف الناجحين. عندئذٍ انتبه إلى أن أسماء الطرق لم تخبره شيئاً عن حجارتها. اقترب قليلاً من بداياتها، من غير أن يحسم اختياره، وصار يصغي إلى المكان نفسه؛ كانت حفيفات العشب تقول عن اتجاه الريح أكثر مما تقوله الأسهم المتزاحمة تحت قدمي الثعلب.

وهم الاختيار الكامل

قال الثعلب: «انتظر حتى تزول الحيرة». سأل شاهين: «وهل تزول؟» حكّ الثعلب أذنه وقال: «أحياناً تظهر حيرةٌ أخرى».

أدرك شاهين أنه لا يملك معلوماتٍ تكفي لضمان النتيجة. لكن لديه ما يكفي لمقارنة المسارات: الدرب الأول حادّ وخطر، والثاني يمر بنبعٍ ومأوى، والثالث يلتف طويلاً حول السهل. لم يحتج إلى معرفة كل شيء؛ احتاج إلى قرارٍ معقول الآن.

اختار الدرب الذي يمر بالماء، وحدد نقطةً يراجع عندها قراره. لم يعد نفسه ألا يغيّر رأيه. وعد نفسه أن يراجع الوقائع، لا أن يغيّر الاتجاه كلما ارتفع نبضه.

اختار درباً لا لأنه مضمون، بل لأن أسبابه واضحة ومخاطره قابلة للتعامل. كان ذلك كافياً ليبدأ من دون ادعاء اليقين.

قبل أن يبتعد، التقط شاهين حصاةً صغيرة ووضعها عند بداية الدرب المختار، لا لتمنع عودته، بل ليعرف الموضع إن احتاج إليه. ثم نظر خلفه مرةً واحدة؛ كانت الأسهم لا تزال كثيرة، لكن المسافة بينها بدت أصغر مما تخيل. حمل معه سؤالاً محدداً عن حال الطريق بعد النبع، وترك بقية الأسئلة تنتظر ما سيظهر له هناك. وفي أول المنعطف شمّ رائحة ترابٍ رطب، فخفف سرعته ليتبين الأرض. لم يكن ذلك جواباً عن الرحلة كلها، وإنما معلومةٌ صغيرة تصل في وقتها وتساعده على ترتيب الخطوة التالية.

خطوةٌ لا حكمٌ أبدي

سار حتى النبع، وهناك راجع اختياره. كان الطريق صالحاً، لكنه أطول مما ظن. تعب، فاستراح. لم يفسر التعب علامةً على أن القرار كان خاطئاً، ولم يعتبر الاستمرار واجباً مهما تغيرت الظروف.

قال للثعلب حين لحق به: «اختياري لهذا الدرب ليس عقداً مع الأبد. إذا ظهرت معلومةٌ جديدة فسأعيد النظر». ابتسم الثعلب ابتسامةً أقل ثقة، ثم عاد إلى مفترقه.

لم تختفِ الحيرة تماماً. لكنها صارت بحجمها الحقيقي: سؤالاً ينتظر بعض الخبرة، لا وحشاً يبتلع كل خياراته.

ومع كل خطوةٍ صار يعرف شيئاً لم يكن يعرفه عند المفترق. لم تعد المراجعة علامة تراجع؛ صارت جزءاً من حسن السير.

عند حافة النبع، لاحظ شاهين أن ظل الصخرة انتقل منذ وصوله، وأن الهواء أخذ يبرد. كانت هذه تفاصيل لم تدخل حسابه الأول، فانتظر حتى هدأ تعبه، ثم نظر في مقدار الضوء الباقي قبل متابعة السير. لم يحتج إلى الدفاع عن اختياره أمام الثعلب الغائب؛ احتاج إلى ماءٍ وراحةٍ وتقديرٍ جديد للمسافة. وحين نهض، اختار وتيرةً أبطأ، تسمح له برؤية الحجارة الصغيرة. بدا الدرب نفسه مختلفاً تحت قدميه، لا لأن الأرض تبدلت، بل لأنه صار يعرف أين يضع ثقله، وأين يترك لنفسه مجالاً للتوقف.

وقفة الفصل

التردد قد يحمي من التسرع، لكنه قد يتحول إلى دائرةٍ تستنزف الوقت. ساعده بموعدٍ لاتخاذ القرار، ومعيارين أو ثلاثة للمفاضلة، وخطةٍ لمراجعة النتيجة.

اسأل: ما الذي أعرفه؟ ما الذي لا أعرفه؟ ما أسوأ احتمالٍ واقعي، وكيف أتعامل معه؟ هل قراري قابل للتراجع أو التصحيح؟ ومن يستطيع مساعدتي في التقييم؟

اختر قراراً منخفض المخاطر تتأخر فيه، وحدد وقتاً للبتّ به. أما القرارات الطبية أو المالية أو القانونية الكبيرة، فاطلب فيها رأي أهل الاختصاص ولا تجعل حكمة الحكاية بديلاً عن المشورة المناسبة.

قد يظهر أثر القرار في تفصيلٍ لم تنتبه إليه وأنت تفكر: ساعةٍ صارت أهدأ، أو مشوارٍ اتضح أنه أطول، أو عبءٍ انتقل إلى شخصٍ آخر. حين تراجع ما حدث، انظر أيضاً إلى هذه التفاصيل، لا إلى النتيجة التي كنت تنتظرها وحدها. وربما تستعين بمن شاركك التجربة، فيريك جانباً غاب عن موضعك. ليست المراجعة محكمةً تبحث عن مذنب؛ يمكن أن تكون جلسةً قصيرة حول طاولة، تُفتح فيها الملاحظات بهدوء، ويُتفق على تعديلٍ واحد يمكن تجربته، ثم تُغلق الورقة ويبقى الوقت متاحاً للحياة خارجها.

الفصل السادس | المطر والرفقة

ليس واجباً على القلب أن يواجه العاصفة وحده كي يستحق اسم الشجاعة.

في اليوم التالي، تكاثفت الغيوم فوق الجبل. هبط المطر على الدرب، وصارت الحجارة زلقة. احتمى شاهين تحت صخرةٍ بارزة، وقلبه يخفق كطبلٍ بعيد. لم يكن خوفه وهماً هذه المرة؛ كان المطر خطراً يستحق الحذر.

رأى غزالاً صغيراً عالقاً عند جدولٍ ارتفع ماؤه. نادى عليه من مكانه، ثم انتظر حتى اقتربت الغزالة الأم مع مسافرين آخرين. لم يقفز إلى الماء كي يثبت شجاعته. ساعدهم في تحديد موضعٍ أكثر أماناً، ثم عبروا معاً حين هدأ الجريان.

في تلك اللحظة فهم أن الشجاعة ليست تجاهل الخطر. إنها أن ترى الخطر كما هو، وتتصرف بمسؤولية، وتقبل المساعدة.

لو كان وحده، لربما حسب التأخر عاراً. مع رفقائه رأى أن التوقف في المطر قرارٌ يحفظ الجميع، وأن الحكمة قد تبدو أحياناً كأنها انتظار.

بعد العبور، وجدوا رقعةً مرتفعة تحجب عنها الأشجار بعض المطر، فاجتمعوا فيها حتى استقرت أنفاسهم. اقترب الغزال الصغير من أمه، وظلت قطرات الماء تتساقط من أطراف الأغصان على مهل. سأل أحد المسافرين شاهين إن كان يحتاج إلى استراحةٍ أطول، فأجاب بالإيجاب من غير اعتذار. أفسحوا له موضعاً أقل تعرضاً للريح، وتبادلوا ما رأوه من علامات الطريق. لم يتكلم أحدٌ كثيراً عن الشجاعة؛ كانوا منشغلين بالتأكد من دفء الصغير وسلامة الممر التالي. وبين تلك العناية البسيطة، أحس شاهين أن الرفقة تغيّر ملمس الرحلة، لا طولها فقط.

حين يكون التوقف قراراً

استمر المطر ساعةً أخرى. اقترحت الغزالة أن ينتظروا حتى يخفّ. كاد شاهين يقول إن عليه متابعة الطريق، لكنه تراجع. لم يكن الوصول قبل الجميع هدفاً، ولم يكن التوقف فشلاً.

أكلوا من زادهم، وتبادلوا أخبار الطريق. أخبرته الغزالة أن الممر الشرقي انهار، وأن المسار الجنوبي أكثر أماناً. المعلومة وفرت عليه مخاطرةً لم يكن يعرفها.

فكر في المرات التي أخفى فيها خوفه كي لا يبدو ضعيفاً. لو فعل ذلك الآن، لعرّض نفسه وربما الآخرين للخطر. صار الاعتراف بحدوده فعلاً من أفعال المسؤولية، لا تنازلاً عن قيمته.

لم يختفِ القلق وهو جالسٌ تحت الصخرة، لكنه لم يعد مضطراً إلى طاعته أو محاربته. ترك المطر يمر، واهتم بما يحتاجه جسده في تلك الساعة.

قرب حافة الصخرة، كانت قطرات الماء تحفر في التراب خطوطاً دقيقة، ثم تلتقي في مجرى واحد. تابعها شاهين بعينيه، ومدّ زاده إلى موضع جاف كي لا يبتل. سأل الغزالة عن العلامة التي يعرف بها مدخل المسار الجنوبي، فأشارت إلى شجرتين تتجاوران عند السفح. حفظ موضعهما، ثم عاد يستريح. لم تكن ساعة الانتظار فراغاً بين خطوتين؛ فيها جفّ بعض ريشه، واتضح الطريق الذي سيختاره. وحين مرّت نسمة أبرد، ضم جناحيه برفق، وترك لنفسه وقتاً آخر تحت الصخرة، إلى أن يخف المطر ويصبح الخروج منها أكثر أماناً.

رفقةٌ لا تقود بدلاً منك

حين انقشع المطر، عرضت الغزالة أن ترافقه إلى بداية المسار الجنوبي. لم تَعِدْه بإزالة خوفه، ولم تسحب القرار من جناحيه. مشت قربه، وكان كلٌّ منهما يختار موضع قدمه.

قال شاهين: «كنت أظن أن طلب المساعدة يعني أنني لا أستطيع». أجابت: «أحياناً يعني أنك تعرف أن الطريق لا يُقطع كله منفرداً». ثم أضافت أن لكل مسافرٍ حدوده وطرق دعمه، وأن المساندة الجيدة لا تلغي اختيار صاحبها.

افترقا عند الممر. لم يعد شاهين وحيداً كما كان يظن، حتى حين أكمل وحده. صار يعرف أسماءً يمكن أن يناديها إذا احتاج، ويعرف أن طلب العون ليس ديناً يُذلّه.

تعلم أن المساندة الأفضل لا تنتزع المقود من يدك؛ تسير قربك، وتشاركك خبرتها، وتترك لك مساحة اختيارٍ تحفظ كرامتك.

بعد أن غابت الغزالة خلف منعطف الأشجار، بلغ شاهين موضعاً تشعبت فيه آثار الأقدام. تذكر وصفها للممر، لكنه لم يستعجل الترجيح. نظر إلى امتداد الأرض، ثم اختار الفرع الذي بدت تربته أثبت وأقل انحداراً. بقي من صحبتها شيء عملي: طريقة النظر قبل الخطوة، لا خطى محفوظة يقلدها. وكان في وسعه أن يعود إلى موضع افتراقهما لو التبس عليه المسار. حمل هذا الاحتمال معه كما يحمل بعض الزاد؛ شيئاً لا يلزمه استعماله الآن، لكنه يطمئن إلى وجوده، ويمنحه فسحة ليختار دون أن يدعي معرفة الطريق كله.

وقفة الفصل

حاول أن تميّز بين خوفٍ يضخّم موقفاً آمناً وبين تنبيهٍ إلى خطرٍ حقيقي. لا تختبر نفسك في مواقف مؤذية، ولا تجعل الإقدام مرادفاً للتهور.

اكتب ثلاثة مصادر دعم مناسبة لك: شخصٌ تثق به، جهةٌ مهنية أو خدمةٌ مختصة، وخطوةٌ عملية تحسن الأمان. إذا كان الخطر عاجلاً، فالأولوية هي الوصول إلى مساعدةٍ موثوقة في محيطك.

اسأل نفسك: هل أحتاج شجاعةً لأبدأ، أم أحتاج معلوماتٍ أو راحةً أو حماية؟ الإجابة قد تتغير من يومٍ إلى آخر. الإصغاء للحدود ليس انسحاباً من الحياة؛ إنه طريقةٌ للبقاء فيها.

يمكن أن تبدأ هذه الوقفة من تفصيل صغير بقي معك من الطريق: صوت المطر على الحجر، أو سؤال تأخرت في قوله، أو اسم شخص جعل الموقف أوضح. دوّن التفصيل كما تتذكره، من غير أن تستخرج منه حكماً على نفسك. ثم اترك إلى جواره مساحة لما لم تعرفه بعد. قد تكون المعلومة الناقصة أهم من الإجابة السريعة، وقد تحتاج بعض الأسئلة إلى حديث هادئ مع من تثق به. ليس ضرورياً أن تمتلئ الصفحة اليوم؛ يكفي أن تحمل أثراً صادقاً تستطيع الرجوع إليه حين يتبدل المشهد.

الفصل السابع | قمة المرآة

من يساعدك قد يريك السؤال؛ أمّا النظر في المرآة فعملك أنت.

بعد أيامٍ من المشي، بلغ شاهين القمة. وجد هناك صخرةً ملساء تشبه المرآة، لا بيتاً ولا عرشاً ولا باباً سرياً. ظهر انعكاسه على سطحها: ريشٌ مغبر، عينان متعبتان، وجناحان لم يفتحهما منذ زمن.

انتظر الحكيم. نادى مرةً، ثم مرتين. لم يجبه أحد. وحين اقترب من المرآة، رأى صورته تتحرك معه. خفض رأسه، فانخفض الرأس في الصورة. رفع جناحه قليلاً، فارتفع الجناح في الصورة.

همس: «أين الحكيم؟» فردّ الصمت بوجهه هو. لم يكن ذلك إعلاناً أن كل جوابٍ داخله، ولا إنكاراً لحاجة الإنسان إلى الآخرين. كان تذكيراً بأن لا أحد يستطيع أن يرى خطواته مكانه.

لم تمنحه المرآة إجابةً جاهزة، لكنها جعلت السؤال أكثر عدلاً. لم يعد يسأل: «ما العيب فيّ؟» بل: «ما الذي أحتاجه كي أجرب بأمان؟»

تحركت غيمة فوق القمة، فتبدلت الإضاءة على الصخرة، وظهر في سطحها شق رفيع لم يلحظه أول الأمر. مرر شاهين نظره بين الشق وصورته، وأدرك أن ما يراه يتأثر أيضاً بزاوية وقوفه وبالضوء. ابتعد قليلاً عن الحافة، واختار أرضاً مستوية يستقر عليها. من هناك بدت جناحاه أوضح، وبدت السماء وراءهما أقل اتساعاً مما خيل إليه وهو قريب من الصخر. لم يفتحهما بعد؛ اكتفى بتحديد موضع قد يصلح لبداية صغيرة، وصار لسؤاله مكان على الأرض، لا صدى معلق في فراغ القمة ينتظر جواباً بعيداً.

الجواب الذي لا يُؤمر

من خلف الصخرة، جاء صوت البوم المسن. كان قد قطع جزءاً من الطريق ليطمئن على المسافر. قال: «بحثت عن حكيمٍ يخبرك كيف تطير، لكن من يختار الحركة هو أنت. المرآة لا تمنح جناحاً، ولا تمحو ذكرى؛ إنها تعيد إليك ما أمامها».

قال شاهين: «إذن كنت أستطيع الطيران طوال الوقت؟» أجاب البوم: «جناحاك كانا موجودين، لكن هذا لا يجعل خوفك غير حقيقي. قدرتك تحتاج إلى عنايةٍ وتجربةٍ آمنة، وليس إلى لومٍ على ما لم تستطع فعله سابقاً».

لم تكن القمة محكمةً تصدر حكماً على شاهين. كانت مكاناً هادئاً يرى فيه جسده كاملاً: القوة والتعب، الإمكان والحدود، الأمس واليوم.

فهم أن المسؤولية لا تعني أن يصنع كل شيء وحده، بل أن يشارك في قراره، ويختار من يستعين به، ويخبره بما يناسبه.

سأل شاهين البوم إن كان يستطيع البقاء قريباً بعض الوقت. وافق المسن، واختار حجراً منخفضاً لا يحجب المرآة ولا يضيّق المساحة أمامه. ثم سأله شاهين عن هبّات الريح في ذلك الموضع، فأصغيا معاً إلى حفيف العشب بين الصخور. كانت الريح تشتد لحظة ثم تهدأ، ففضّل شاهين أن يراقبها قبل أي محاولة. لم يطالبه البوم بموعد، ولم يملأ سكوته بالتوجيهات. بقي حضوره واضحاً عند طرف النظر، مثل ضوء يمكن الاهتداء به، فيما أخذ شاهين يرتب ما يريد أن يسأله وما يستطيع تجربته في تلك الساعة.

انعكاسٌ بلا قسوة

حدق شاهين في صورته طويلاً. رأى خطوط الريش التي حجبتها الأتربة، ورأى عند كتفه موضع الخدش القديم. لم يقل: «لم يحدث شيء». ولم يقل: «أنا مكسور إلى الأبد». ترك الحقيقة تقف بين الجملتين.

فتح جناحه بقدرٍ محتمل، ثم أعاده إلى جانبه. كرر الحركة مراتٍ قليلة، لا ليجبر نفسه، بل ليتعرف إلى إحساس الريش حين يتحرك. كانت خطوة صغيرة لا يراها أحد غيره، لكنها لم تكن وهماً.

قال البوم: «إذا شعرت بألمٍ أو خطر، فتوقف واطلب المساعدة. وإذا كان الأمر آمناً، يمكنك أن تتقدم على قدر استطاعتك». أومأ شاهين. لأول مرة لم يحتج إلى وعدٍ ضخم كي يصدّق أن التغيير ممكن.

كان جناحه في المرآة أكبر من الندبة وأصغر من السماء؛ لا صورةً مثالية ولا حكماً ناقصاً. مجرد جزءٍ من حكايةٍ ما زالت تتسع.

حين انتهى من الحركات القليلة، جلس شاهين في ظل الصخرة، وراح ينفض الغبار عن أطراف ريشه بمنقاره. كانت حبيبات التراب تسقط على الحجر، فتظهر تحتها ألوان لم يرها بوضوح طوال الطريق. التفت إلى البوم وقال إنه يكتفي بهذا القدر الآن، فبقي المسن إلى جواره يتأمل امتداد السفح. لم يتغير حجم القمة، ولم تصبح الريح ألين، لكن الوقت لم يعد يطارده إلى حركة أخرى. نظر إلى المرآة مرة أخيرة قبل أن يريح جناحه؛ رأى ريشة مائلة، فسواها برفق، ثم انصرف إلى بقية العناية بجسده المتعب.

وقفة الفصل

المرآة في الحكاية رمزٌ للمراجعة الصادقة، لا دعوةٌ إلى الاكتفاء بالنفس أو إلى رفض المساندة. نحتاج أحياناً إلى عينٍ أمينة، ومعلومةٍ متخصصة، وكلمةٍ رحيمة. ثم نحتاج أيضاً إلى أن نشارك في قرارنا.

انظر إلى ما تملكه الآن: مهارةٌ واحدة، علاقةٌ واحدة، فرصةٌ واحدة، أو قدرةٌ على طلب العون. لا تقارن بدايتك بمنتصف طريق شخصٍ آخر.

اكتب جملةً تصفك من دون مبالغة أو تحقير، مثل: «أنا شخصٌ تعلّم أن يحذر بعد تجربة مؤلمة، وأستطيع أن أتعلم خياراتٍ أخرى». اجعلها صادقة بما يكفي لتصدقها، ورحيمة بما يكفي لتعيش معها.

ولعل ما تكشفه هذه الوقفة ليس صورةً ثابتة، بل تفاصيل كانت تضيع في سرعة الطريق: موقفٌ أحسنت فيه الإصغاء، وسؤالٌ أجلتَه حتى وجدت من تأمنه، وحدٌّ عرفته متأخراً ثم احترمته. إلى جوار الجملة التي كتبتها، اترك سطراً لما لم تفهمه بعد؛ فالمراجعة لا تحتاج إلى إغلاق كل الأبواب في مساءٍ واحد. قد تعود إلى الورقة بعد أيام، فتجد أن بعض الكلمات ضاق عليك، وأن كلمةً أخرى صارت أدق. حينها يمكن أن تعدّل وصفك، كما تعدّل موضع المصباح لترى الزوايا التي بقيت في العتمة.

الفصل الثامن | جناحان في الضوء

قد يبدأ التحرر بحركةٍ صغيرة لا يراها أحد، لكنها تغيّر علاقتك بنفسك.

في الصباح، وقف شاهين عند طرف القمة. لم تكن القمة منصةً للاندفاع إلى المجهول؛ كانت مكاناً واسعاً اختار فيه أرضاً ثابتة. فحص الريح، ورأى الطيور تمر على ارتفاعٍ منخفض، واستمع إلى جسده.

لم يقل: «لن أخاف بعد اليوم». قال: «الخوف حاضر، وسأقرر معه لا نيابةً عنه». مدّ جناحيه ببطء، ثم طواهما. كرر ذلك حتى صار الإحساس أقل غرابة. لم يشاهده جمهورٌ، ولم تصفق السماء.

ثم اتخذ خطوةً نحو حافةٍ آمنة، لا قفزةً إلى فراغ. كان الفرق مهماً: لم يكن يحاول إثبات قيمته، بل يتعلم حركةً جديدة بقدرٍ يستطيع احتماله.

في ذلك الصباح، لم يطلب من نفسه أن تصبح طائراً آخر. أراد أن يلتقي شاهين كما هو الآن، ويمنحه فرصة تجربةٍ لطيفة لا عقوبةً جديدة.

سقط الضوء بين ريش جناحيه، فأظهر خطوطاً دقيقةً لم يكن يلتفت إليها وهو يضمهما إلى جانبيه. حرّك أحدهما قليلاً، وتابع الظل على الصخر؛ كان يتسع ثم يعود، من غير أن يطالبه بشيء. انتظر حتى خفّت هبّةٌ مرت فوق القمة، ثم نقل ثقله بين قدميه، باحثاً عن الوقفة الأريح. لمح بقعةً مستويةً خلفه تصلح للراحة، فبقيت في نظره وهو يتدرب. وبقي صوت الريح مسموعاً، لا خصماً عليه أن يغلبه، بل شيئاً يتبين شدته واتجاهه قبل أن يختار الحركة التالية، في ضوء صباحٍ يتقدم ببطء.

أول رفرفة

هبّت نسمةٌ على ريشه. مال بجسده قليلاً، واستند إلى الأرض. شعر بالخوف يوقظ قلبه، لكنه لم يعد يظنه أمراً. تذكر ما تعلمه من الغزالة عن الممر الآمن، ومن السلحفاة عن التدرج، ومن البوم عن الفرق بين الوقائع والتوقعات.

رفرف بجناحيه مرةً. ارتفع الغبار حول قدميه، ولم يرتفع جسده. لم يسمّها فشلاً؛ كانت معلومةً عن القوة والاتزان. استراح، وعدّل وقفته، ثم أعاد المحاولة بعد أن هدأ.

في المحاولة التالية، خفّ ضغط قدميه عن الصخر لحظةً. عاد إلى الأرض سريعاً، لكنه ابتسم. لم تكن اللحظة برهاناً على أن كل شيء صار سهلاً؛ كانت دليلاً على أن ما ظنه مستحيلاً قد يصبح تجربةً قابلة للتعلم، خطوةً بعد خطوة.

لم يقس نجاحه بالمسافة وحدها. قاسه أيضاً بأنه بقي حاضراً، وانتبه لجسده، وتوقف حين احتاج، ثم عاد للمحاولة برغبته.

بقيت على الصخر علامةٌ خفيفة حيث تحركت قدماه، فانحنى يتأملها كأنها أثر حرفٍ أول في لغةٍ يتعلمها. لاحظ أن جناحه الأيسر سبق الآخر قليلاً، وأن النسمة تبدلت حين أدار صدره. لم يستعجل محاولةً ثالثة؛ جلس إلى جوار حجرٍ دافئ، وأخذ يميز بين خشخشة الريش وحفيف العشب القريب. كان في تلك التفاصيل ما يستحق الانتباه أكثر من تخيل ارتفاعٍ بعيد. وحين نهض، اختار أن يجرّب توازن الوقفة وحده، تاركاً الارتفاع لوقتٍ آخر، وقد صار يعرف عن حركة جناحيه شيئاً لم يعرفه قبل الصباح.

العودة إلى الغابة

لم يطِر شاهين مسافةً هائلةً في يومٍ واحد. سار جزءاً من طريق العودة، وحلّق لمسافةٍ قصيرة حين كانت الظروف مناسبة. توقف ليستريح، واستشار البوم بشأن ألمٍ شعر به في كتفه. لم يخفِ حاجته كي يحافظ على صورةٍ بطولية.

عند أطراف الغابة، كان العصفور الصغير ينتظره. سأله: «هل صرت لا تخاف؟» قال شاهين: «لا. لكنني لم أعد أترك الخوف يقرر كل شيء». ثم أخبره أن لكل طائرٍ وقته، وأن عليه ألا يقفز من موضعٍ خطر لإرضاء أحد.

لم تتحول الغابة إلى مكانٍ بلا ظلال. تغيرت علاقة شاهين بالظلال: صار يراها، ويسأل عمّا تعنيه، ثم يختار خطوته التالية.

لم يعد إلى عشه بطلاً لا يحتاج أحداً. عاد رفيقاً أكثر إنصافاً لنفسه، يعرف متى يمشي، ومتى يفتح جناحيه، ومتى يطلب صحبة الطريق.

مشى العصفور إلى جانبه تحت الأغصان، وأخذ يحدثه عن ثمرةٍ نضجت قرب الجدول وعن غصنٍ كسرته الريح في غيابه. أصغى شاهين إلى أخبارٍ صغيرة لم تكن تسأله عمّا أنجز، وشعر بألفة التراب الرطب تحت قدميه. وعند الموضع الذي ضاق فيه الممر، أشار إلى كتفه وطلب أن يبطئا، فخفف العصفور خطاه من غير أن يقطع الحديث. لم يحتج شاهين إلى شرح الرحلة كلها في تلك اللحظة؛ كان يكفي أن يعود الصوت المألوف إلى جواره، وأن يعرف أن للعش طريقاً يمكن قطعه على مهل.

وقفة الفصل

لا تجعل نهاية الحكاية امتحاناً لجرأتك. ما ينجح لشاهين في الخيال قد لا يناسب ظروف إنسانٍ آخر. اختر عودةً واقعية إلى حياتك: حدودٌ أوضح، محاولةٌ صغيرة، راحةٌ كافية، أو مساعدةٌ مناسبة.

ضع خطةً من ثلاثة أجزاء: خطوةٌ أستطيع فعلها هذا الأسبوع؛ شخصٌ يمكنني إخباره؛ وإشارةٌ تعني أن عليّ التوقف أو تغيير الخطة. النجاح ليس أن تتجاهل الإشارة، بل أن تستجيب لها بحكمة.

واحتفل بما تعلمته لا بما يراه الآخرون فقط. قد لا يسمع أحد رفرفتك الأولى، لكنك تعرف مقدار الطريق الذي قطعته من الصمت إلى الاختيار.

بعد كتابة الخطة، قد يفيد أن تتخيل موضعها في يومٍ عادي، لا في يومٍ مثالي: أين ستجلس، وكم من الوقت يتاح لك، وما الذي قد يقاطعك؟ ربما تحتاج الخطوة إلى موعدٍ آخر، أو إلى تجهيزٍ بسيط لم تنتبه إليه. اترك في الورقة مساحةً لهذه التفاصيل، ثم عد إليها بعد التجربة لتسجل ما حدث فعلاً، حتى لو كان مختلفاً عما توقعت. وفي حديثك مع الشخص الذي اخترته، تستطيع أن توضح نوع الحضور الذي تريده: إصغاءً، أو مرافقةً، أو رأياً في أمرٍ محدد بقي غامضاً.

بعد الحكاية | رسالة إلى جناحيك

ربما لم تكن المشكلة يوماً في أنك لا تملك جناحين، وربما كانت الحياة أكثر تعقيداً من استعارةٍ عن الطيران. في الحالتين، لا تختصر قيمتك في إنجازٍ واحد، ولا تضع على كتفيك واجباً بأن تكون قوياً طوال الوقت.

تعلّم من التجربة من غير أن تعاقب نفسك بها. استمع إلى الناس من غير أن تسلّمهم حق تعريفك. فكّر قبل أن تختار، ثم اسمح لنفسك أن تختار قبل أن تضمن كل شيء. واطلب المساندة حين تكون أنفع وأأمن.

قد تكون خطوتك القادمة صغيرة جداً. لا بأس. المهم أن تكون لك، وأن تنسجم مع واقعك، وأن تترك لك مجالاً لتتعلم وتراجع وتبدأ من جديد.

يا جناحيّ، لن أكتب إليكما وعداً بسماءٍ صافية، بل خبراً عن نافذةٍ سأفتحها حين يناسبني الهواء. أعرف أن أياماً ستمضي في أعمالٍ عادية، وأن الرحلة قد تترك أثرها في طريقة جلوسي إلى مائدة، أو في سؤالٍ أنطقه بعدما طال ترددي. سأحتفظ بما تعلمته منكما قريباً من هذه التفاصيل، لا معلقاً فوقها كراية. وإذا التبست عليّ وجهة الطريق، فسأبحث عن صوتٍ أمين يساعدني على قراءة العلامات. أما اليوم، فسأترك الرسالة مفتوحةً، وفي آخرها مكانٌ لتاريخٍ جديد، ولخبرٍ صغير لم يحدث بعد، ولا أعرف صورته.

كلمة أخيرة

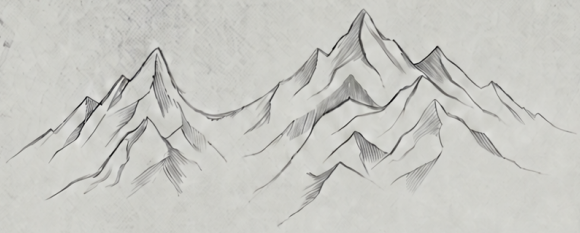
إلى القارئ الذي وصل إلى هنا: لا أعرف شكل الطريق الذي تمشيه، ولا أزعم أن كلماتٍ قليلة تزيل ما مررت به. لكنني أرجو أن تذكّرك الحكاية بأن التعثر لا يلغي الكرامة، وأن الحذر قد يكون بداية فهمٍ أعمق لا نهاية الحلم.

إذا احتجت إلى مساعدة، فاطلبها من شخصٍ مأمون أو مختصٍ مناسب. وإذا كنت أنت من يساند غيرك، فأنصت قبل أن تنصح، ولا تفرض على أحدٍ توقيتك أو طريقتك. كل إنسانٍ أدرى بتفاصيل تجربته، ويستحق أن يُعامل باحترام.

حين تضيق الغابة، ابحث عن خطوةٍ آمنة، أو يدٍ أمينة، أو لحظة راحة. لا يلزم أن ترى القمة كلها كي تعرف أن أمامك خياراً واحداً صالحاً الآن.

وبعد أن تطوي الصفحة، قد يبقى من الشاهين ظلّ جناحٍ على حافة الذاكرة، لا يقودك ولا يختار عنك، بل يرافق سؤالاً لم تجد له اسماً بعد. ستعود إلى أشياء يومك الصغيرة: كوبٍ دافئ، ونافذةٍ يدخل منها الضوء، وصوتٍ تعرفه يناديك. هناك، بعيداً عن خاتمة الحكاية، تستأنف حياتك إيقاعها الخاص، بما فيها من انتظارٍ ولقاءٍ وأعمالٍ عادية. ولعل أثر الكتاب لا يظهر في قرارٍ كبير، وإنما في فسحةٍ تتركها لنفسك، أو في حديثٍ صادق تشارك فيه شخصاً تثق به شيئاً مما ظلّ ساكناً في صدرك.

© 2026 — جميع حقوق التأليف والنشر محفوظة للمؤلف: علي إبراهيم خليل الخفاجي. لا يسمح بنسخ الكتاب أو إعادة نشره كاملاً دون إذن خطي من المؤلف، مع مراعاة الاقتباسات المسموح بها قانوناً.



"لا نخشى السقوط، وإنما نخشى البقاء حيث سقطنا."

في غابة السرو الكثيفة، عاش شاهينٌ بجناحين عريضين يعكسان ملامح القوة والكبرياء. لكنّه لم يكن ينظر إلى السماء ؛كان ينظر إلى الأرض، مقيداً بعبارة واحدة كرّرها الخـوف في داخـلـه منذ سقوط قديم: "لن تسـتطيع".

هذه ليست مجرد حكاية عن طائر يخاف الطيران، بل هي رحلة أدبية وتأملية تسير بنا عبر غابات الحيرة وجبال التردد؛ لنكتشف الفرق بين ألم الماضي وخيارات الحاضر. إنها رحلة شجاعة تعلّمنا أن التعثر لا يلغي الكرامة، وأننا لا نحتاج إلى إنكار الخوف كي نبدأ... بل يكفي أن نسميه بدقة.

خذ من هذه الصفحات ما يشبه تجربتك، واجلس إلى جوار بطلها، واكتشف كيف يمكن للخطوة الصغيرة الواعية أن تفتح جناحيك من جديد تحت ضوء صباح يتقدم على مهل.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف: علي إبراهيم خليل الخفاجي © 2026